

تفسير البحر المحيط

@ 43 @ تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفْصَاكِ أَثَرِيْمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ
كَاذِبُونَ * وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي
كُلِّ وَادٍ يَهْمِيْمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرٍ وَإِن تَصَرُّوا مِنْ
بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ
} . .

كان مشركو قريش يقولون : إن لمحمد تابعاً من الجن يخبره كما يخبر الكهنة ، فنزلت ،
والضمير في { بِهِ } يعود على القرآن ، بل { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } . وقرأ
الحسن : الشياطين ، وتقدمت في البقرة ، وقد ردها أبو حاتم والقراء ؛ قال أبو حاتم : هي
غلط منه أو عليه . وقال النحاس : هو غلط عند جميع النحويين . وقال المهدوي : هو غير
جائز في العربية . وقال الفراء : غلط الشيخ ، ظن أنها النون التي على هجائن . فقال
النضر بن شميل : إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤية ، فهلا جاز أن يحتج بقول الحسن
وصاحبه ، يريد محمد بن السميع ، مع أنا نعلم أنهما لم يقرأ بها إلا وقد سمعا فيه ؟
وقال يونس بن حبيب : سمعت أعرابياً يقول : دخلت بساتين من ورائها بساتون ، فقلت : ما
أشبه هذا بقراءة الحسن . انتهى . ووجهت هذه القراءة بأنه لما كان آخره كآخر يبرين
وفلسطين ، فكما أجرى إعراب هذا على النون تارة وعلى ما قبله تارة فقالوا : يبرين
ويبرون وفلسطين وفلسطين ؛ أجرى ذلك في الشياطين تشبيهاً به فقالوا : الشياطين
والشياطين . وقال أبو فيد مؤرج السدوسي : إن كان اشتقاقه من شاط ، أي احترق ، يشيط
شوطة ، كان لقراءتهما وجه . قيل : ووجهها أن بناء المبالغة منه شياطين ، وجمعه الشياطين
، فخففا الياء ، وقد روي عنهما التشديد ، وقرأ به غيرهما . انتهى . وقرأ الأعمش :
الشياطين ، كما قرأه الحسن وابن السميع . فهؤلاء الثلاثة من نقله القرآن ، قرؤوا ذلك ،
ولا يمكن أن يقال غلطوا ، لأنهم من العلم ونقل القرآن بمكان . وما أحسن ما ترتب نفي هذه
الجملة : نفي أولاً تنزيل الشياطين به ، والنفي في الغالب يكون في الممكن ، وإن كان هنا
لا يمكن من الشياطين التنزل بالقرآن ، ثم نفي انبغاء ذلك والصلاحية ، أي ولو فرض الإمكان
لم يكونوا أهلاً له ، ثم نفي قدرتهم على ذلك وأنه مستحيل في حقهم التنزل به ، فارتقى من
نفي الإمكان إلى نفي الصلاحية إلى نفي القدرة والاستطاعة ، وذلك مبالغة مترتبة في نفي
تنزيلهم به ، ثم علل انتفاء ذلك عن استماع كلام أهل السماء مرجومون بالشهب . .

ثم قال تعالى : { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ } : والخطاب في الحقيقة للسامع ، لأنه تعالى قد علم أن ذلك لا يمكن أن يكون من الرسول صلى الله عليه وسلم) ، ولذلك قال المفسرون : المعنى قل يا محمد لمن كفر : لا تدع مع الله إلهاً آخر . ثم أمره تعالى بإنذار عشيرته ، والعشيرة تحت الفخذ وفوق الفصيلة ، ونبه على العشيرة ، وإن كان مأموراً بإنذار الناس كافة . كما قال : { أَلَمْ أَنْذَرِ النَّاسَ } ، لأن في إنذارهم ، وهم عشيرته ، عدم محاباة ولطف بهم ، وأنهم والناس في ذلك شرع واحد في التخويف والإنذار . فإذا كانت القرابة قد خوفوا وأنذروا مع ما يلحق الإنسان في حقهم من الرأفة ، كان غيرهم في ذلك أوكد وأدخل ، أو لأن البداءة تكون بمن يليه ثم من بعده ، كما قال : { قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ } . وقال عليه الصلاة والسلام حين دخل مكة : (كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين ، فأول ما أضعه ربا العباس ، إذ العشيرة مظنة الطواعة ، ويمكنه من الغلظة عليهم ما لا يمكنه مع غيرهم ، وهم له أشد احتمالاً) . وامثل صلى الله عليه وسلم) ما أمره به ربه من إنذار عشيرته ، فنادى الأقرب فالأقرب فخذاً . وروى عنه في ذلك أحاديث . { وَآخِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } : تقدم الكلام على هذه الجمل في آخر الحجر ، وهو كناية عن التواضع . وقال بعض الشعراء : % (وأنت الشهير بخفض الجناح % . فلا تك في رفعه أجداً . %) .